**طوفانُ الأقصى يفضحُ الفلسفةَ العقلية الألمانية... هابرماس نموذجاً**

19-12-2023 | 00:00 **المصدر**: "النهار"

**د. هلا رشيد أمون\***

بعد "[#طوفان الأقصى](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d8%b7%d9%88%d9%81%d8%a7%d9%86+%d8%a7%d9%84%d8%a3%d9%82%d8%b5%d9%89)" بنحو شهر، نشر الفيلسوف الالماني الشهير "يورغن هابرماس" أحد أهم فلاسفة نظرية الفعل التواصلي في الفضاء العمومي، بياناً تحت عنوان : "مبادئ التضامن"، وقَّعه مع اصدقائه "راينر فورست" و "كلاوس غونتر" و "نيكول ديتلهوف" . وفي هذا البيان أبدى "هابرماس" موقفه مما يجري في فلسطين المحتلة بعد عملية "طوفان الأقصى"، ومما ترتكبه اسرائيل من جرائم ومجازر في صفوف المدنيين. ولعل أقلَّ ما يقال في هذا البيان، إنه فضيحة كبيرة بكل المقاييس، وصدمة لكل المشتغلين بالفلسفة من العرب، وسقطة أخلاقية لا تليق بالمكانة الفلسفية الكونية لصاحب البيان الذي أطلق أحكاماً غير عقلية بناءً على قراءة متحيِّزة وسردية اختزالية انتقائية أخرجت الاحداث الجارية في غزة عن سياقاتها الحقيقية وجرّدتها من حمولتها التاريخية، لأن هدفه المباشر والمعلن بلا مواربة أو خجل، كان الدفاع عن اليهود، وعن الكيان الاسرائيلي المحتل الذي يرتكب فظائع يندى لها جبين البشرية .

وقد رسم "هابرماس" في هذا البيان، خطوطاً حمراء على بعض "المبادئ العقلية" التي هي بمنزلة "البديهيات" التي لا يجوز عنده، مناقشتها او الاختلاف حولها، رغم أنه اعتاد أن يضع كل شيء موضع نقاش وحوار وخلاف، بغية فحصه بطريقة عقلانية. وتلك المبادئ هي التضامن مع اسرائيل واليهود، فيقول: "هناك بعض المبادئ التي لا يجب أن تكون محل َّخلافٍ. وهي مبادئ تشكل أساساً لتضامنٍ مُفكَرٍ فيه ومُتَعقلٍ مع [#إسرائيل](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d8%a5%d8%b3%d8%b1%d8%a7%d8%a6%d9%8a%d9%84) واليهود واليهوديات في ألمانيا ". هذا التضامن العنصري غير المشروط الذي يصفه صاحبه بأنه "مُفَكَّرٌ فيه ومُتَعَقَّل"، قاده الى تبرير العنف الوحشي والهمجي الذي تمارسه اسرائيل في غزة، باعتباره "دفاعاً عن النفس" . بل إنَّ "هابرماس" يتخلى عن نزاهته الفكرية، ويتهم حماس (التي هي حركة تحرر ومقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي لأرض فلسطين) بأنها هي مَن يملك النية في إبادة اليهود، نافياً ما يشاع عن ارتكاب اسرائيل لمجازر ابادة جماعية، مستخدماً عبارةً رمادية مضلَّلة هي " التصرفات الاسرائيلية"، لتعمية الرأي العام الألماني والعالمي عن "مجازر اسرائيل"، فيقول : "إن المجزرة التي ارتكبتها حماس والمصحوبة بنيَّتها المعلنة لإبادة الحياة اليهودية بشكل عام، كانت سبباً في دفع إسرائيل إلى الإنتقام بهجوم مضاد .. إن معايير الحُكم تحيد عن الطريق تماماً، عندما تُنسب نوايا الإبادة الجماعية إلى التصرفات الإسرائيلية."

أي أن فلسفة العقل والنقد والتواصل والتنوير، قد تحولت الى أداةٍ لتسويغ وتبرير العنف الوحشي ضد الأبرياء ؛ وللتعمية عن الحقيقة الساطعة سطوع الشمس، وهي ان الفلسطينيين هم اصحاب الارض الحقيقيون، وأن "اليهود" هم الغزاة الذين اقتلعوا شعباً بأكمله من أرضه ومدنه وقراه وبيوته، واستوطنوها بقوة النار والحديد، بدعمٍ مباشر من دول الغرب "المتحضَّر". وهي لو اعترفت بهذه الحقيقة، لعجزت عن اقناع القارئ بأن حماس هي المعتدية، واسرائيل هي الضحية المعتدى عليها، أو عن فرض أحكامٍ جازمة مثل: كل شخص يخالفني ويعتقد بأن لدى اسرائيل نية بالابادة الجماعية، فرأيهُ مجانب للصواب، وحُكمه غير صحيح. وهذا منتهى الاستعلاء والاستبداد الفكري، ورفض النقاش ومصادرة حقّ الاختلاف والادعاء الكاذب بامتلاك السلطة
في تحديد المعايير الكونية، والتمييز بين الصواب والخطأ، الخير والشر .

أضف الى ذلك، أن "هابرماس" يقدم سردية مبتورة وغير متوازنة عندما يتحدث عن : "الوضع الحالي الذي تسبَّبت فيه وحشيةُ الهجوم غير المسبوق الذي شنَّته حماس، وردّ فعل إسرائيل عليه". وهو بهذا يتجاهل سردية أخرى تتعلق بمأساة الشعب الفلسطيني الذي يتعرض للتهجير والاضطهاد والتنكيل الوحشي منذ عقود، وهذا هو جوهر الصراع في "الوضع الحالي" الذي لم يأتِ من عدم أو من فراغ، كما يوحي نصُّ "هابرماس" الذي يُهمل عن قصدٍ، لُبَّ الأزمة وجوهر المشكلة، ألا هو "الاحتلال" الاسرائيلي نفسه، حتى لا تكتسب القضية الفلسطينية أبعاداً أخلاقية وتحررية وحقوقية في الفضاء العمومي، تستوجب المطالبة بالعدالة والحرية وانهاء الاحتلال.

بالنسبة الى "هابرماس"، لا يهمُّ عدد القتلى والجرحى، وحجم التدمير الوحشي الذي طال المستشفيات والمساجد والكنائس واماكن ايواء الهاربين من همجية جيش الاحتلال الاسرائيلي، بل المهم بالنسبة اليه، هو ان لا تنجح "سلسلة المواقف الأخلاقية والسياسية والمظاهرات الاحتجاجية" ضد اسرائيل، في استعادة النزعة الاوروبية في معاداة السامية، إذ يضيف: "وكيفما كان الحال، فإن تصرفات إسرائيل لا تبرر بأي حال من الأحوال، ردود الفعل المعادية للسامية، وخاصة في ألمانيا. فأن يتعرض اليهود واليهوديات في ألمانيا مرة أخرى لتهديدات تهدد حياتهم وأجسادهم، وتجبرهم على الخوف من العنف الجسدي في الشوارع، فهذا أمر لا يُطاق وغير مقبول إطلاقاً . فالروح الديمقراطية لجمهورية ألمانيا الإتحادية التي تقوم على أساس الإعتراف باحترام الكرامة الإنسانية، ترتبط بثقافة سياسية تعتبر الحياة اليهودية وحقَّ إسرائيل في الوجود، عنصرين أساسيين يستحقان حماية خاصة، مع استحضار الجرائم الجماعية التي ارتُكبت سابقاً في الحقبة النازية. وهذا الإعتراف بهذه المسألة والإلتزام بها، أمر أساسي في حياتنا السياسية" .

"هابرماس" الذي قد لا تعني له شيئاً الصُّور المهينة واللاإنسانية التي تظهر قوات إسرائيلية وهي تعتقل عشرات الفلسطينيين (بينهم مثقفين وأكاديميين وأطباء وصحافيين) في شوارع قطاع غزة، معصوبي العينين، ومجردين من ثيابهم، وجاثيين على ركبهم، يحرص على تخصيص اليهود بمعاملةٍ خاصةٍ في الديمقراطية الألمانية، تعترف بهم وتقدم لهم حماية خاصة من "عنفٍ محتمل". وبالتالي فان المقصود من عبارته "احترام الكرامة الإنسانية"، ليس كرامة كل الناس في أيِّ مكان وأيِّ زمان، بل المقصود كرامة اليهود حصراً في ألمانيا ، أما كرامة الفلسطينيين التي تُنتهك منذ سبعة عقود، فلا يقيم الفيلسوف الكوني لها أيَّ وزن أو اعتبار، طالما أنَّ مَن ينتهكها هو  اسرائيل التي تُعتبر حمايتها والاعتراف بحقها في الوجود، من المسلمات في الحياة السياسية الالمانية. وفي كل الأحوال، لا مشكلة لدينا في دفاعه عن "اليهود" الذين أدان عددً كبير منهم وحشية اسرائيل، وتبرّؤوا منها بشعار "ليس باسمنا"، بل المشكلة هي في الدفاع عن "اسرائيل" التي يقدمها على أنها "بريئة" بالمطلق، فيما حماس "مُدانة" بالمطلق. اسرائيل تمثل "الخير" لذلك يجب التضامن مع مظلوميتها، وحماس تمثل "الشرّ" لذلك يجب ادانة وحشيتها. بهذه البساطة يقلب "هابرماس" الأدوار والأحكام، فيجعل الضحية شيطاناً، والجلاد ملاكاً، والمقاومة توَّحشاً، والابادة الجماعية دفاعاً عن النفس.

البيان/الموقف يبدو للوهلة الأولى، انه يدافع عن قيم انسانية كونية، عندما يذكر : "الحقوق الأساسية في الحرية والسلامة الجسدية والحماية من التشهير العنصري، التي هي حقوق غير قابلة للتجزئة، وتسري على الجميع بالتساوي" . ولكن مهلاً أيها القارئ ، فكلمة "الجميع" في البيان، لا تعني "جميع الناس" بغضِّ النظر عن اجناسهم واديانهم واوطانهم، لأنك ستكتشف ان اشارته الى "المساواة" في الحقوق، لم تُستحضر سوى للدفاع عن اليهود الذين يتعرضون لمعاداة السامية في المانيا، بل هي تتضمن تهديداً مبطناً للعرب والمسلمين الموجودين في المانيا، الذين يناصرون القضية الفلسطينية، واتهاماً لهم بانتهاز الفرصة لتغذية المشاعر المعادية للسامية، لذلك يضيف البيان : "يجب على جميع أولئك الذين يُقيمون في بلادنا، والذين بثوا فيها المشاعر والقناعات المعادية للسامية، باعتماد شتى أنواع الذرائع، ويرون الآن فرصة ملائمة للتعبير عنها دون عائق، أن يلتزموا بتلك الحقوق ويمتثلون لها" . أي أنَّ كل مَن يدين الهمجية الاسرائيلية، سوف يتمُّ تصنيفه على أنه معادٍ للسامية. وهذا الموقف الالغائي/ الاقصائي للرأي الآخر الذي يتعارض مع حرية التعبير والديمقراطية، نابع من تجاهل "هابرماس" (وهو العارف) أن "معاداة السامية" و"اضطهاد اليهود"، ليستا (ولم تكونا يوماً ) مشكلة عربية /اسلامية، بل هما في الأساس مشكلة مسيحية / اوروبية امتدت على مدى قرون، وتمَّ تتويجها بسوق اليهود الى محارق النازية في بلده ألمانيا، باعتباره الحل المثالي لما عُرف باسم "الوضع النهائي للمسألة اليهودية" .

ولأن كل معرفة وكل فلسفة، إن لم تكن إنسانية وأخلاقية وتنتصر للقيم الثابتة للبشرية، تصبح خطراً  على المجتمع، فإن هذه المواقف المخزية التي تضامنت مع القاتل والجلاد والمحتل، ولم تتضامن مع القتيل والضحية وصاحب الأرض، لا يمكن ان تكون قد صدرت عن عقلٍ نقديّ حرّ ونزيه، بل صدرت كما هو واضح، عن مخاوف و "عُقدٍةِ ذنبٍ" اصبحت متجذرة في الثقافة السياسية الالمانية، مصدرها تاريخ ألمانيا في الحقبة النازية. فهي تغضُّ النظر عن "عنفٍ حاصل"، وتتخوف من "عنفٍ محتمل"، لأنها تريد "التكفير" عن جرائم ارتكبها الألمان النازيون، بالدفاع عن "المجرم" اليهودي الحالي في فلسطين، الذي كان "ضحية" آباء وأجداد "هابرماس" ، في أفران الغاز ومعتقلات الجستابو . ورغم أن "هابرماس" هو صاحب نظرية "تحييد الإيديولوجي والمقدس المانع أو المحرِّم للتفكير النقدي"، إلا ان مواقفه تصطف وراء العقل السياسي والايديولوجي الألماني، بدل ان تقوده وتوجهه وتصحح مفاهيمه؛ وتنطلق من الموالاة للحركة الصهيونية العالمية التي أنشأت اسرائيل لتكون "مستعمرة غربية" في الشرق الأوسط، تحمي مصالح الدول الغربية/الاستعمارية التي سرقت ثرواته وصادرت حداثته وديمقراطيته ودعمت الأنظمة الاستبدادية فيه.

الواقع أن "الفكر النازي" في الرايخ الثالث، الذي يخشى "هابرماس" احياءه وبعثه من جديد، والذي نكَّل أصحابه بالشيوعيين والمثليين والغجر والسلاف واليهود وحتى اصحاب الاعاقات، كان منتجاً محلياً وصناعة ألمانية بامتياز ، وترجمةً عملية للإرث الفلسفي الألماني، وخاصةً للافكار الهيجيلية التي مجَّدت القوة والعنف والحرب والدولة الشمولية، واعتبرت اننا لا نستطيع فهم "حركة" التاريخ، إذا لم نأخذ "العدم" والفناء والدمار والهدم والتقويض، في الحسبان، باعتبارها عوامل وشروطاً ضرورية ومؤسِّسة للبناء والتقدّم في التاريخ البشري. ولقد كانت مهمة الفلسفة عند فيلسوف ألمانيا الأكبر "هيجل"، أن تفهم ما هو موجود، "لأن ما هو موجود هو العقل". والفكرة التي تجلبها الفلسفة وهي تتأمل التاريخ، هي أن "العقل الكلي" (الروح المطلق) يسيطر على "التاريخ"، ويحرّك العالم بشكلٍ خفيّ ، وكل ما يحدث في العالم إنما هو تعبير عن ظهوره في التاريخ . ولذلك فإن تاريخ العالم يتمثّل أمامنا بوصفه "مساراً عقلياً". حتى الحروب والفتوحات العسكرية والمجازر والإبادات الجماعية وسقوط الانظمة السياسية، هي أيضاً "عقلانية"، طالما أنها مظاهر للعقل الذي يتجلّى عبر التاريخ، منذ أقدم العصور وحتى اليوم.

والحقيقة أن بيان "هابرماس" الذي تخلى فيه عن حسّه النقدي والأخلاقي والانساني والتاريخي، وانشغل بالتضامن مع المجرم، متغاضياً عن حمام الدم والتطهير العرقي في هولوكوست غزة، انما يعكس أزمة أخلاقية حقيقية في ألمانيا ومعظم العالم الغربي في انحيازه الأعمى لإسرائيل، ويجسد تناقض العقل الاوروبي الاستعلائي المتمركز حول ذاته وحامل المعايير المزدوجة (غرب/شرق، مجتمع حديث/مجتمع متخلف ...) ويقدم تبريراً صريحاً لممارسة العنف غير المبرر في المستقبل. فهيجل وماركس ونيتشة وروسو وفولتير وغيرهم من فلاسفة الحداثة، لم يكونوا يتوقعون ان افكارهم ومواقفهم الفلسفية، سوف تؤدي الى مقتل ملايين البشر في اوروبا، بإسم العقل والحداثة والتقدم والدفاع عن المستضعفين.

لقد رأى "أفلاطون" أنّ "العنف" هو نقيض "اللوغوس" (أو العقل) وأنه "لا يمكن زوال شقاء النوع الإنساني، ما لم يحكم الفلاسفة أو يتفلسف الملوك والحكّام، لأن العقل الفلسفي وما ينتجه من حكمةٍ وشرائع وأفكار وقوانين، يكون كافياً للحُكم". والحقيقة أن النص الهابرماسيُّ الموجز كان "عنيفاً" في مضمونه وغاياته، في ما قاله وفي ما لم يقله، بل وكان "مضاداً" للعقل الفلسفي وللإرث الفكري لمدرسة فرانكفورت النقدية التي اهتمت بمسائل العدالة والحرية والانسانية، وانتقدت بشدةٍ العقل الأداتي (الذي يهدف الى السيطرة) وتسليع الانسان واغترابه، ونزعات العنف والفاشية والنازية والشيوعية والرأسمالية. ومن خلال مشروعه الفلسفي والسياسي والاجتماعي، كان "هابرماس" (الذي يمثل الجيل الثاني من مدرسة فرانكفورت النقدية) يبحث في كتبه "الأخلاق والتواصل"و"نظرية الفعل التواصلي" و "القول الفلسفي للحداثة" و"جدلية العلمنة"، عن صيغةٍ أخلاقية وفلسفية للتعامل مع "الآخر"، وعن أرضية مشتركة للتفاهم بين الذوات الانسانية، لبناء جسور تواصل وحوار  بين "الأنا" و "الآخر" الذي لا يجب التعامل معه كشيء، بل كانسان، بغية عقلنة العالم الذي نعيش فيه. وكان "التحرّر" من قمع السلطات الاستبدادية الفاشية العنفية، هو الهدفَ النهائي لنظريته النقدية.
فكم هو  مؤسفٍ لفيلسوفٍ هذا مشروعه، ان تتحول الفلسفة  على يديه الى خطابٍ للحرب لا للسلام ، للكراهية لا للحوار ، لتكريس الاحتلال لا للتحرر ، وذلك عندما وقّع باسمه بياناً اعتبر فيه أن "الآخر" هو فقط "اليهودي"، واستثنى "الفلسطيني" من أن يكون ذلك "الآخر" الذي يملك كرامةً، ويجب التعامل معه على أنه انسان يستحق التعاطف والتضامن والحماية والحرية والعدالة؛ بياناً انزلق فيه الفيلسوف من رحاب القيم الكونية والعالمية والانسانية، الى الزواريب الضيقة للمحلي والسياسي والسلطوي والعنصري والديني ! كم هو مؤسف لهذا الفيلسوف الذي يبلغ من العمر 94 سنة، ان يختتم مسيرته الفلسفية بالدفاع عن كيانٍ غاصبٍ ومحتل يتقمص قادتُه "الهُويَّة النازية" بكل اجرامها ودمويتها ؛ وعن دولةٍ ليس فيها دستور، وليس لها حدود، تأسَّست على فكرة "النقاء الديني اليهودي"، وتعتمد سياسة العزل والاذلال والفصل العنصري والاستيطان، وتمارس "ارهاب الدين والدولة" بكل ما للعبارة من معاني .

**\*أُستاذة الفلسفة في الجامعة اللبنانية**